موقف السكاكي من الشاهد القرآني
في كتابه مفتاح العلوم

بحثٌ مُقدَّمٌ للمؤتمر القرآني الدولي الرابع (مقدس) والذي سيعقد في جامعة ملايا في العاصمة الماليزية

قدَّمه

الدكتور / سعد بن عبدالعزيز الدُّريهم

الأستاذ المشارك بكلية الملك خالد العسكرية

بالحرس الوطني

١٤٣٤٥ هـ - ٢٠١٤ م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين ، والصَّلاة ، والسَّلام على أشرف الأنبياء والمرسلين ؛ نبيِّنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد : إنه من يتأمل في البلاغة العربية من خلال تأريخها سيجد أن نُقلتها من الجانب الأدبيِّ الذي يستند على النظم إلى الجانب التقعيدي التعليمي ؛ كان على يد العلاَّمة أبي يعقوب السكاكيِّ ـ رحمه الله ـ ، وذلك من خلال القسم الثالث من كتابه القيم الجامع الشامل (مفتاح العلوم) ، ومن يتقدم قليلاً في هذا المسار وهو النظر في تأريخ البلاغة سيلحظ أن هذه الشخصية التي كان لها قدم السَّبق في التنظير البلاغي التعليمي ، قد نالت من النقد ما لم ينله غيرها ، حيثُ قُوبِلَت بهجوم من أرباب الفن البلاغيِّ كاد يقلب إحسانه إساءة ، وكاد يُطِيح بهذا السبق الذي حققه . فبلاغة السكاكي عند أولئك النَقَدَةِ حوَّلت البلاغة من السلاسة إلى التعقيد ، وجعلتها في قوالب تشبه الصم الصِّلاَّب ، وكادت تعصف بالجمال الذي حياه الله هذه اللغة في سلسلة من التهم لا زالت تلاك .

ولو تأملنا وأنصفنا بلاغة السكاكيِّ رحمه الله التقعيدية ؛ لوجدناها حسنة قُدِّمت للبلاغة العربية ، وخطوةً أدت إلى تماسكها وأعطتها قوة تدفع بها لأواء السنين وشدتها ، وهي من مقتضيات الزمن ولكل زمن ماينا سبه ، فعندما كانت النفوس ذات قوة على النظر والغوص على وجوه الإعجاز كانت طريقة عبدالقاهر ومَنْ تقدَّمه هي الخير ، ولكن عندما ضَعُفَت كان التقعيد هو خير الوسائل لإدراك بلاغة القرآن وموروث العرب .

ومهما يكن من شيء فإن السكاكيَّ رحمه الله لم يخرج عن مشكاة عبدالقاهر لا في قواعده أو شواهده المختلفة بل زاد عليها ، بل هو يمتح من معينه ثراً ليقدمه للناس سهلاً رائقاً ، ولا عجب ، فالسَّكَّاكِيُّ ومن خلال تعامله مع الفنون البلاغة وهو أبوبجدتها تقعيداً تلحظ منه هضماً للمادة البلاغية التي قررها عبدالقاهر ـ رحمه الله ـ ؛ لذا صرَّفها على الأقسام البلاغية والأبواب لا يكاد يند عنه شيءٌ منها ، حتى أولئك الذين افتاتوا عليه ؛ فابتدعوا أبواباً أخرى عند التدقيق تلحظ أنهم لم يأتوا بجديد ، لكنها الرغبة في التقسيم والإطالة وهو مما ابتليت به البلاغة العربية .

ومما يدل على أنَّ السكاكيَّ احتذى مسلك عبدالقاهر في التركيز على قضية الإعجاز تلك الآيات التي استشهد بها السكاكي في المفتاح ، وكلها بسبب من عبدالقاهر، وعليها بنى قواعده البلاغية ووقف مع كثير منها ، وفي بحثنا هذا المقدم لهذه المؤتمر سنقف مع الشواهد القرآنية التي هي أس تلك القضية ، والله أسأل أن يلهمني الصواب ؛ إنه جواد كريم .

دكتور

سعد بن عبدالعزيز

الدريهم

الرياض

الحديث عن السكاكي وكتابه :

لا يختلف اثنان على أنَّ السكاكيَّ ـ رحمه الله ـ من المؤثرين في الحقل اللغوي والبلاغي منه خاصة ، ومن مظاهر هذا التأثير تلك النقلة التي أحدثها في الحقل البلاغيِّ ، حيث نقلها من الطور الأدبي ممن تقدمه إلى الطور التقعيدي ، والأجيال التي تلته مدينة له بهذا السبق .

الكثير يتردد عنده المسمى (السكاكي) ، ولكنه ليس على علم بما وراءة من اسم ولقب بله النشأة والسيرة ، ومن التمهيد المستحب الإشارة ولو بأسطر لحياة هذا العلم الكبير وكتابه محل الدراسة ، وهو كما في كتب التراجم : أبو يعقوبَ يوسفُ بن أبي بكر محمد بن علي السكاكيُّ ، ولد في خوارزم ثالث جمادى الأولى سنة : ٥٥٥ هـ ، في عهد أيل أرسلان بن آتز ومن مسماه يَظْهَرُ أنَّ أسرته كانت تحترف صناعة المعادن وسكِّها ، ومن ثم شَاعَ لها لقب (السكاكي) ، وكانت تُعنى بصنع السكة ، وهي حديدة منقوشة تُضْرَب بها الدراهم ، وكل من تَرْجَمَ له يذكر أنَّه ظل على هذه الحِرفة حتى نهاية العقد الثالث من حياته ؛ حتى قُذِفَ في قلبه حُبُّ العلم والتفرغ له ، وإذا هو يُقْبِلُ عليه حفظاً ودرساً ، وقد ساعده تلك البيئة العلمية التي عاش في كنفها [١].

شيوخه ومؤلفاته :

ذَكَرَتْ كتبُ التراجُم أنه تتلمذ على عدد من الشيوخ منهم : سديد الدين الخياطي ، وابن صاعد الحارثي ، ومحمد بن عبد الكريم التركستاني ، وهم جميعا من فقهاء المذهب الحنفي . وأشاد في مباحثه البلاغية بأستاذه الحاتمي ، وله مصنفات مختلفة ، أهمها (المفتاح) ، ويظهر أنه كان مشتهراً في عصره شهرة واسعة ، حتى إنَّ ياقوتَ الحموي ليقول عنه : فقيه متكلم متفنن في علوم شتى[٢]، وهو أحد أفاضل العصر الذين سارت بذكرهم الرُّكبان ، وقد توفي رحمه الله بخوارزم سنة ست وعشرين وستمائة ،

(١) معجم الأدباء : ٦ / ٢٨٤٦ ؛ الجواهر المضيئة : ٢ / ٢٤٥ ؛ بغية الوعاة : ٢ / ٣٦٤ ؛ شذرات الذهب : ٥ / ٥ / ١٢٢ ؛ الفوائد البهية : ٢٣١ .

(٢) معجم الأدباء : ٦ / ٢٨٤٦

وقيل : سبع وعشرين وستمائة للهجرة رحمه الله رحمة واسعة [٣].

أثر السكاكيِّ في البلاغة العربية :

لا يخفى على من له أدنى معرفة أن أبا يعقوب كان رجلا وافر العقل ، حاد الذهن ، واسع الثقافة ، مشاركاً في علوم كثيرة ، وقد كانت المباحث البلاغية تُدرَّس قبله ، على هامش العلوم الأخرى مسائل متفرقة ، ويختلف ترتيب هذه المسائل من كتاب لآخر قبل أن تمتد نحوها يد التنظم والتنسق ، وهذا ظاهر فيما كتبه الإمام عبد القاهر ، وفيما نثره الزمخشري في الكشاف ، نعم كان هناك إحساس بأواصر قوية بين الفنون المتصلة بدراسة الصورة البيانية ، فكان يجمع التشبيه مع المجاز والكناية في نظام واحد إلا أن هذا كان إحساساً غائماً ، وقد يتخلف فتختلط المسائل كما هو الحال في كتاب دلائل الإعجاز.

وكان ذكر الزمخشري لعلمي المعاني والبيان ، إشارة بينة إلى تمييز هذه المسائل وتصنيفها في هذين العلمين ، وإن كان ذلك لم يتم على يديه ، وكان من الخير كما يرى السكاكيُّ ، أن تضبط مسائل هذين العلمين وأن تحدد تحديدا بيناً ، وأن تميَّز تمييزاً كاشفاً ، فكان هو أول من فعل ذلك فحدد أبواب (علم المعاني) ، وحصرها ، وحدد أبواب (علم البيان) ، وحصرها فأتم بذلك ما بدأ به الزمخشري .

منهجه في كتابه مفتاح العلوم :

لقد قسَّم السَّكَّاكِيُّ كتابه ثلاثة أقسام ، تحدث في القسم الأول منها عن علم الصَّرف ، وما يتصل ، وجعل القسم الثاني لعلم النحو .

أما القسم الثالث فخصَّ به علم المعاني وعلم البيان ، وألحق بهما مقدمة في الفصاحة والبلاغة ، ودراسة للمحسنات البديعية اللفظية والمعنوية ، ولاحظ أن علم المعاني يحتاج إلى من يتأمل فيه ، وإلى الوقوف على الحد والاستدلال أو بعبارة أخرى ، إلى الوقوف على علم المنطق ففتح له مبحثا أحاط فيه بمسائله كما وجد أيضاً أن من يتدرب على علمي المعاني والبيان يحتاج إلى الوقوف ، على علمي العروض والقافية ؛ فأفرد لهما المبحث الأخير في الكتاب وبذلك اشتمل المفتاح على علوم الصرف والنحو والمعاني والبيان والمنطق والعروض والقوافي، ونراه يصور في تقديمه له طريقته في تصنيفه[٤] ، فيقول : (وما ضمنت جميع ذلك كتابي هذا إلا بعد ما ميزتُ البعض عن البعض التمييز المناسب ، ولخصت الكلام على حسب مقتضى المقام هنالك ، ومهدت لكل من ذلك أصولا لائقة ، وأوردت حججاً مناسبة ، وقررت ما صادفتُ من أراء السلف ـ قدَّس الله أرواحَهم ـ بقدر ما احتملت من التقرير ، مع الإرشاد إلى ضروب مباحث قلَّتْ عناية السلف بها ، وإيراد لطائف مفنَّنة ما فَتَق بها رَتْق أذن)[٥].

---

(٣) الفوائد البهية : ٢٣١

(٤) انظر : المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز : ٣٢٦ .

(٥) مفتاح العلوم : ٦ .

وشهرةُ السَّكاكي إنما ذاعت بسبب القسم الثالث من الكتاب الخاص بعلمي المعاني والبيان ولواحقهما من الفصاحة والبلاغة والمحسنات البديعية اللفظية والمعنوية ، فقد أعطى لهذا كلِّه الصيغة النهائية التي عكف عليها العلماء من بعده يتدارسونها ويشرحونها مراراً ؛ إذ استطاع أن ينفذ من خلال الكتابات البلاغية قبله إلى عمل مُلَخص دقيقٍ لما نثره أصحابها من أراء ، وما استطاع أن يضيفه إليها من أفكار وصاغ ذلك كله صياغة مضبوطة محكمة استعان فيها بقدرته المنطقية في التعليل ، وفي التجريد والتحديد ، والتعريف والتقسيم ، والتفريع والتشعيب ، وكان قائدَه في ذلك كتابا عبد القاهر (دلائل الإعجاز) ، و (أسرار البلاغة) ، و(الكشاف) للزمخشري ، و (نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز) للرازي ـ رحم الله الجميع ـ ، الذي لخص فيه كتابي الإمام عبد القاهر الدلائل والأسرار ، ومن الحق والإنصاف أن تلخيصه أدق من تلخيص الفخر الرازي ، وكأنما كان عقله أكثر دقة وضبطاً للمسائل في هذا الفن خاصة ، بل لقد كان أكثر تنظيماً وأسدَّ تقسيماً مع ترتيب المقدمات ، وإحكام المقاييس وصحة البراهين ، وبذلك استقام تلخيصه ، بحيث لا نجد فيه عوجا ولا أمتاً[٦] ، وإنما نجد فيه الدقة والقدرة البارعة على التبويب والإحاطة الكاملة بالأقسام والفروع ، غير أن ذلك عنده لم يشفع بتحليلات الشيخ عبد القاهر ، والعلامة الزمخشري ، التي كانت تملأ النفوس ، إعجابا وبهجة وأريحية ، ولو فعل لحاز السبق من أطرافه .

%%%

الشاهد القرآني عند السكاكي :

الشاهد هو : ذلك النص النثري أو الشعري ، الذي بلغ درجة عالية من الفصاحة والبلاغة ؛ فيُقَدَّم للباحثين لإثبات قضية في شتى مناحي اللغة نحويةً كانت أو صرفية أو بلاغية لإثباتها وتقريرها ، فما وافق الشاهد فصحيح ، وله حكمه في الفصاحة وما خالف الشاهد فخطأ ، وبهذه الشواهد حفظ العلماء الأثبات رسوم اللغة من الخطأ ولزلل

(٦) انظر : المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني : ٣٢٧

، وجعلتِ الإنسانَ المتأخر يتحدث باللغة كما تحدث بها الأول ، ومن أجل هذا الحرص على الشاهد واحتذائه بنيت أدق القوعد ، فكانت جامعة مانعة .

ولو تأملنا في الشواهد الذي تخيرَّها المتقدمون لإرساء قواعدهم ؛ نجدها لا تتعدى القرآن الكريم والسنة النبوية وكذلك الشعر العربي الفصيح في أوقات الاحتجاج ؛ وإن كانت بعض العلوم تتجوز فتتخير من المنثور والمشعور أجودَه وإن كان خارج عصور الاحتجاج ، وإن كانت تلك الشواهد تؤخذ كمعززات للشواهد القديمة لا مؤسسة ، ومهما يكن من أمر فالشاهد هو تكأة اللغوي والبلاغي فعن طريقه يبصر مواطن الجمال ، ويصنع من خلاله أعذب المقطوعات ، فهو القائد ومن كان له قائد فهو إلى الغاية أقرب .

وليست كل العلوم سواء في التعامل مع الشاهد ، فعلم النحو والصرف يتعامل مع قضايا ثابتة لا تتغير ، بل هي لازمة مابقي الليل والنهار ، بخلاف الشاهد البلاغي والبلاغة عموماً فهي ذوقية فعلى هذا يجب أن تخرج عن التحديد الملزم ، فحيثما حصل الإمتاع فثمة بلاغة، كما أن تبادل المتعة بين الأمم هدف من أهدافها وشواهدها .

والشاهد البلاغي لا ينظر فيه إلى آحاد الكلمات كما عند النحاة والصرفيين ، بل إلى الشاهد كاملاً من أوله إلى آخره وما فيه من أوجه بلاغيَّةٍ وإبداعية ، كما أن النظرة إلى الشاهد البلاغي ينبغي أن تكون متجددة مع كل نظرة إلى الشاهد البلاغي ، ويجب ألا يقف المتأخر عند حدود الأول ، بل عليه أن يؤسس لمعايير أخرى ربما أوحت بها نظرتُه ، وكم ترك الأول للآخر .

والبلاغيون لم يلزموا أنفسهم بما أزم به اللغويون والنحاة أنفسهم من الاستشهاد بعصر دون عصر ، بل كلٌّ منثور ومشعور حَرِيٌّ بأن ينظر فيه ، ونظراتنا فيه هي من تحدد الجودة أو الرداءة ، وليس العصر والمصر ، وهذا هو الحق ، فوجود صاحب النص في العصر المنتخب لا يعطي شهادة على صحة ما قال ، كما أن خروجه من حدود الزمان والمكان لا يلغيه أو يلغي مقوله ، وهذه نظرة من أهل البلاغة عميقة ، كما أنه تسامح مع النص لاستجلاب عمقه الجمالي الرايق ، كما أن هذا الفضاء الواسع الرحب للشاهد البلاغي على اختلاف توجهاته أبعد الشاهد البلاغي عن الجمود والنمطية الغارقة في أوحال التكرار ، ولعلك لو تتبعت دواوين البلاغة الكبرى لوجدتها تتباين ، فبعضها لا يكرر بعضاً ولا يأخذ منه حذو القذة بالقذة ، بل الشواهد غير الشواهد والاستنباط منها مختلف جداً .

وإنك لو تأملت في الشاهد البلاغي قرآنا وسنة وشعراً ، لوجدتها تمتاز في اختيارها بالجمال والروعة وكثرة الماء والرواء والجزالة والقوة والتجدد والحيوية ، ودراستنا هنا ستجعل من تلك الرؤى حقيقة وستكون متوجهة للشواهد من كتاب الله ، وحسبك بكتاب الله بلاغة وإعجازاً ، بل لم تُسن البلاغة إلا للكشف عن إعجاز القرآن الكريم ، بل القرآن هو مجال البلاغة الأرحب ، وهو ساحةٌ تبارى الأقدمون والمتأخرون فيها لحيازة السبق في الكشف عن إعجاز القرآن ، وقد كان لهم بعض ما

أرادوا ؛ لذا نلحظهم يمتحون من معينه فمنهم مقل ومنهم مستكثر ، ولعل على رأس من أولى الشاهدَ البلاغيَّ أولوية كبرى هو أبويعقوب السكاكي ـ رحمه الله ـ ، حيث حشد في المفتاح وفي القسم الثالث منه ما يزيد على خمسمائة آية ، وهذا العدد لا نجد مثله عند عبدالقاهر في كتابيه الدلائل والأسرار ؛ مما يدل على الاحتفال الكبير عند السكاكي بالإعجاز القرآني الكريم ، وهو كذلك يفوق الشعر الذي ضمنه الكتاب، حيث لا تتعدى الشواهد الشعرية في المفتاح مئتين وخمسين بيتاً ، بل إنك عندما تتصفح بعض الأبواب في المفتاح تكاد تمر بك الصفحات تلو الصفحات لا تجد فيها إلا القرآن وآياته[٧] ، ورغم هذه الكثافة وذلك الإكثار ظلت تهمة جفاف الأسلوب وطغيان المنطق ، تلاحق السكاكي حتى عصرنا هذا ، ربما كان دافعهم للحكم عليه بذلك ليس لكثرة شواهده ، ولكن لطريقة تعامله معها ، التي تختلف عن طريقة عبدالقاهر ـ رحمه الله ـ يفعل ، وهم في حكمهم هذا لا ينظرون لاختلاف المدارس ولا لبواعث التأليف بين الرجلين ، ولو فعلوا لربما أنصفوا السكاكي ، ورفعوا عنه غائلة اللوم .

وهذا الفرق بين السكاكي ومَنْ تقدَّمه من البلاغيين في كثرة الشواهد القرآنية التي ربما زادت عن الضعف ؛ تعطيك مؤشراً على الجدة التي يمتاز بها السكاكي في شواهده القرآنية ، وهذا يجعلك تدرك أن السكاكي لم يجعل بينه وبين كتاب ربِّه وسيطاً يأخذ من خلاله تلك الشواهد ، ففي موضع الحذف استشهد الشيخ عبدالقاهر باثنتي عشر آية ، واستشهد السكاكي بستة عشرة آية ، وقد وافق السكاكي عبدالقاهر في آيتين وانفرد بأربع عشرة آية[٨] ، حتى وإن أخذ السكاكي من قبله فإن أخذه كان آخذاً إيجابياً لم تخفت فيه شخصيته . بل كانت جلية إذ طوع المنهج الأدبي لينساق في الطور التقعيدي الذي أخذ نفسه بتقريره وقد كان .

والسكاكي لمن تتبع منهجه يلحظ أنه يمهد للموضوع بمقدمة يجلي فيها الأغراض والمقتضيات ثم يناقشها مناقشة عقلية ويتبع ذلك بأمثلة من عنده ، ثم يتبعها بسوق الشواهد على ما قال . يقول : (ومهدت لكل من ذلك أصولاً لائقة ، وأوردت حججا مناسبة)[٩] ، والشواهد القرآنية هي المقدمة غالباً ، ثم يلوي بعد ذلك على البقية من شعر وغيره ، وهو لا يكاد يذكر من الآيات إلا محل الشاهد منها ، فعند حديثه عن التقديم وبعض من أسراره أورد آيات عدداً مجتزأة ركز فيها على بغيته منها ، فقد أورد قول الله تعالى (**وَجَعَلُوا لِلهِ شُرَكَاء**)[١٠] ، وكذلك قوله تعالى : (**وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى المَدِيْنَةِ**)[١١]، وقوله: (**وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى المَدِيْنَةِ**)[١٢]، وغير هذه الآيات كثير جداً ، بل جُلُّ شواهده في الكتاب على هذه الشاكلة ، ولا ريب أن اختزال الآية بكلمات منها لا يحقق الغرض الأسمى من الدراسات البلاغية وهو معرفة أوجه الإعجاز وأسرار

---

(٧) انظر : المفتاح :٢٣١ ـ ٢٤٦ ، ٣٠٨ ـ ٣١٧ .
(٨) انظر : المفتاح : ٢٢٩ .
(٩) المفتاح : ٦ .
(١٠)الأنعام : ١٠٠ .
(١١) القصص : ٢٠ .
(١٢) يس : ٢٠ .

النظم[١٣].

والسكاكي وهو يعالج أوجه البلاغة والإعجاز من خلال شواهده من الآيات ، يعقد بعض الموازنات بين بعض الآيات التي بينها اختلاف في النظم ولو كان يسيراً ، ومنها ما كان في نظم الآيتين التي قمت بإيرادهما سلفاً ، حيث يقول : (ولله در أمر التنزيل ، وإحاطته على لطائف الاعتبارات في إيراد المعنى على أنحاء مختلفة بحسب مقتضيات الأحوال ، ولا ترى منها شيئاً يراعى في كلام البلغاء من وجه لطيف ، إلا عثرت عليه مراعى فيه من ألطف وجوه، وأنا ألقي عليك من القرآن عدة أمثلة مما نحن فيه لتستضيء بها ، فيما عسى يظلم عليك من نظائرها إذا أحببت أن تتخذها مسارح نظرك ، ومطارح فكرك ، منها أن قال عز من قائل في سورة القصص في قصة موسى : (**وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى المَدِيْنَةِ**) ، فذكر المجرور بعد الفاعل وهو موضعه ، وقال في يس في قصة رسل عيسى υ : (**وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى المَدِيْنَةِ**) ، فقُدِّم لما كان أهم ، يبين ذلك : أنه حين أخذ في قصة الرسل اشتمل الكلام على سوء معاملة أصحاب القرية والرسل أنهم أصروا على تكذيبه ، وانهمكوا في غوايتهم مستشرين على باطلهم ، فكان مظلة أن يلعن السامع على مجرى العادة مجيلاً تلك القرية قائلاً : ما أنكدها تربة! وما أسوأها منبتاً ! ويبقى مجيلاً في فكره أكانت تلك المدرة بحافاتها كذلك ، أم كان هناك قطر دانٍ أو قاص منبت خير ، منتظراً لمساق الحديث ، هل يلم بذكره ؟ فكان لهذا العارض مهماً فكما جاز موضع له صالح ذكر)[١٤].

ولم يكتف السكاكي في هذا الموضع بهذه المقارنة والموازنة ، بل أورد بعضاً من الآيات منها قوله تعالى : (**لَقَدْ وعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا**)[51] ، وعقد الموازنة بينها وبين قوله تعالى : (**لَقَدْ وعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا**) [١٦] ، وكذلك بين قوله تعالى : (**أَئِذَا كُنَّا تُرَاباً وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لمُخْرَجُونَ**)[١٧] ، وقوله : (**أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً**)[١٨] ومثل هذه الموازنات المبثوثة في المفتاح وتعامل معها المؤلف بالدراسة والتحليل لتوقفك على بديع من النظم عظيم ، كما أنها توقفك على فهم ثاقب ومراس عجيب في الجمع بين المختلفات في نظم واحد وتوجيهها الوجهة الموحية .

والسكاكي إلى جانب هذه الموازنات تلحظ في كتابه الجانب التحليلي للآيات ، حيث يغوص على لطائفها وطرائفها ، وأنت تنظر في ذلك التحليل يتراءى لك وكأنك لأول مرة تقرأ هذه الآية أو تلك ، وتلحظ في ذلك التحليل العمق ، ويمكن أن نقول : إن تحليله يتصف بالسهل الممتنع ، لا يعطيك بعض الفائدة حتى تعطيه اهتمامك وفهمك ، فلعلك تنظر إليه وهو يتحدث عن الالتفات في سورة الفتحة في قوله تعالى : (إِيَّاكَ

(١٣)انظر المفتاح : ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ .
(١٤) مفتاح العلوم : ٢٣٨ .
(١٥) المؤمنون : ٨٣ .
(١٦) النمل : ٦٨ .
(١٧) النمل : ٦٧ .
(١٨)الصافات : ١٦ .

نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِيْنُ) [٢٠] ، حيث قال : (وكلُّ التفات وارد □ القرآن متى صرت من سامعيه عرفك ما موقعه ، وإذا أحببت أن تصد□ من سامعيه فأصخ ثم ليتل عليك قوله تعا□ : (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِيْنُ) فلعلك □ن يشهد له الوجدان بحيث يغنيه عن شهادة ما سواه أن ا□رء إذا أخذ □ استحضار جنايات جانٍ متنقلاً فيها عن الإ□ال إلى التفصيل ، وجد من نفسه تفاوتا □ ا□ال ، بينا لا يكاد يشبه آخر حاله هناك أو□ا ، أو ما تراك إذا كنت □ حديث مع إنسان ، وقد حضر □لسكما من له جنايات □ حقك كيف تصنع ؟ □ول عن الجاني وجهك ، وتأخذ □ الشكاية عنه إلى صاحبك تبثه الشكوى معدداً جناياته واحدة فواحدة ، وأنت فيما بـ□ ذلك واجد مزاجك □مى على تزايد ، □رك حالة لك غضبية تدعوك على أن تواثب ذلك ا□اني وتشافهه بكل سوء ، وأنت لا □يب إلى أن تغلب فتقطع ا□ديث مع الصاحب ومباثتك إياه وترجع إلى الجاني مشافها له بالله ، قل □ : هل عامل أحد مثل هذه ا□عاملة ؟ هل يتصور معاملة ، أسوأ □ا فعلت ؟ أما كان لك حياء يـنعك؟ أما كانت لك مروءة تردعك عن هذا ؟ وإذا كان ا□اضر لمجلسكما ذا نعم عليك كثـ□ة ، فإذا أخذت □ تعديد نعمه عند صاحبك مستحضراً لتفاصيلها، أحسست من نفسك بحالة كأنها تطالبك بالإقبال على منعمك ، وتزين لك ذلك ، ولا تزال تتزايد ما دمت □ تعديد نعمه ، حتى □ملك من حيث لا تدري على أن □دك وأنت معه □ الكلام ، تثني عليه وتدعو له وتقول : بأي لسان أشكر صنائعك الروائع ؟ وبأية عبارة أحصر عوارفك الذوارف ؟ وما جرى ذلك المجرى ، وإذا وعيت ما قصصته عليك وتأملت الالتفات □ (**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِيْنُ**) بعد تلاوتك □ا قبله من قوله : (**الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيْمِ مَالِكِ يَوْمِ الدِّيْنِ**)[٢٠] على الوجه الذي □ب وهو : التأمل القلبي ، علمت ما موقعه وكيف أصاب المحز ، وطبق مفصل البلاغة ؛ لكونه منبها على أن العبد ا□نعم عليه بتلك النعم العظام الفائتة للحصر ، إذا قدر أنه ماثل بـ□ يدي مولاه ، من حقه إذا أخذ □ القراءة أن تكون قراءته على وجه □د معها من نفسه شبه □رك على الإقبال على من □مد ، صائر □ أثناء القراءة إلى حالة شبيهة بإ□اب ذلك عند ختم الصفات ، مستدعية انطباقها على ا□□ل على ما هو عليه ، وإلا □ تكن قارئاً ، والوجه هو إذا افتتح التحميد أن يكون افتتاحه عن قلب حاضر ، ونفس ذاكرة يعقل فيم هو ، وعند من هو ، فإذا انتقل من التحميد إلى الصفات أن يكون انتقاله □ذواً به حذو الافتتاح ، فإنه متى افتتح على الوجه الذي عرفت □ريا على لسانه(**الحَمْدُ للهِ**) ا□مد الله أفلا □د □ركا للإقبال على من □مد من معبود عظيم الشأن ؟ حقيق بالثناء والشكر ؟ مستحق للعبادة ؟ ثم إذا انتقل على نحو الافتتاح إلى قوله : (**...رَبِّ العَالَمِينَ ...**) واصفا له بكونه ربا مالكا للخلق ، لا □رج شيء من ملكوته وربوبيته ، أفترى ذلك المحرك لا يقوى ، ثم إذا قال ، (**الرَّحْمَنِ الرَّحِيْمِ**) فوصفه بـما ينبئ عن كونه منعما على ا□لق بأنواع النعم : جلائلها

---

(١٩) الفاتحة : ٤ .
(٢٠) الفاتحة : ١ ، ٣ .

ودقائقها ، مصيبا إياهم بكل معروف ، أفلا تتضاعف قوة ذلك المحرك عند هذا ؟ ثم إذا آل الأمر إلى خا□ة هذه الصفات وهي (**مَالِكِ يَوْمِ الدِّيْنِ**) ا□نادية على كونه مالكا للأمر كله □ العاقبة يوم ا□شر للثواب والعقاب ، فما ظنك بذلك المحرك ؟ أيسع ذهنك أن لا يصد□ على حد يوجب عليك الإقبال على مو□ شأن نفسك معه منذ افتتحت التحميد ما تصورت فتستطيع أن لا تقول (**إِيَّاكَ**) يا من هذه صفاته نعبد ونستعـ□ لا غ□ك فلا ينطبق على ا□ □ل على ما هو عليه)[٢١] .

وجميع نظرات السكاكي في الشواهد المدرجة في كتابه ـ كما أسلفت ـ تنصب في البحث عن وجوه الإعجاز القرآني ، وما قاله لا يكاد يخرج عما قاله الأقدمون ، وهو في فحواه لا يخرج عن أربعة وجوه ، وهي :

أن القرآن قد بلغ الغاية القصوى في الكلام العربي الفصيح ، فلا ينبغي لكلام أن يبلغ شأوه أو قريباً منه ، لا في النظم ، ولا في دقة المعاني ، ولا تلك اللطائف في لفظه ومعناه .

والوجه الثاني : ما أبدعه القرآن من أفانين التصرف في نظم الكلام ، لما لم يكن معهوداً في أساليب العرب ، ولكنه غير خارج عما تسمح به اللغة .

والوجه الثالث : ما أودع فيه من المعاني الحكيمة ، والإشارات إلى الحقائق العقلية والعلمية ، مما لم تبلغ إليه عقول البشر في عفي عصر نزول القرآن ، وفي عصور بعده متفاوتة .

والوجه الرابع : هو ما انطوى عليه من الإخبار عن المغيبات ، مما يجل على أنه منزل من علام الغيوب[٢٢].

%%%

(٢١) المفتاح : ٢٠١ ـ ٢٠٣ . وللزيادة انظر : المفتاح : ١٠٨ ، ٢١٨ ، ٢٣٢ .
(٢٢) انظر : المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني : ٣٢٩ ـ ٣٣١ .

الخاتمة

بعد هذا التطواف والحديث عن السكاكي وشواهد أجدني ملزماً بتسطير أهم النتائج التي توصلت إليها من خلال الشاهد القرآني في كتاب السكاكي (مفتاح العلوم) ، وسأركز هنا على الأهم منها .

أولاً : القرآن الكريم لا زال على اختلاف المدارس البلاغية هو المعين الأول في استلهام الفصاحة والبلاغة ، ولا عجب فهو الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ؛ لذا من أخذ به هدي إلى صراط مستقيم ، لا في التشريع فقد ، بل حتى في احتذاء نظمه .

ثانياً : الشاهد القرآني عندما يطرح فإنه يحقق الإجماع ، فلا يمكن أن تختلف عليه أو على فصاحته العقول ؛ لذا جعله في مقدم الشواهد وبناء القواعد عليه هو فعل الحكيم ، وهذا مايفعله السكاكي في كتابه مفتاح العلوم .

ثالثاً : استقلالية السكاكي في التوجه لكتاب الله ، وهذا ملاحظ في كثرة شواهده مقارنة بعبدالقاهر ، حيث تبلغ شواهده الخمسمائة شاهد بينما عبدالقاهر لا تتجاوز الثلاثمائة شاهد ، وفي ذلك دلالة على قوة استنباطاته .

رابعاً : عظم منزلة القرآن في نفس السكاكي لذا نراه يقدمه ويكثر منه في كتابه ، ويغلبه على الشعر ، وهذا خلاف ماعليه أهل اللغة وأهل البلاغة على وجه الخصوص .

خامساً : استخدم السكاكي التحليل لتجلية بعض أوجه الإعجاز في بعض الآيات ، ولو أكثر منه وجعله شاملاً لأثرى البلاغة العربية ولخدم الكتاب العزيز ، لكن ذلك لم يكن .

سادساً : شواهد السكاكي القرآنية ظلت تدور في فلك البلاغيين كل يأخذ منها ويمتح ، وهناك من تفاعل معها تحليلاً ، فهي ملهمة الملخصين والشارحين ، ومن كان بسبب ونسب للبلاغة .

سابعاً : بنى من خلال الشواهد القرآنية رأياً في الإعجاز ، وقد أشرت إليه في هذا البحث ، وهو لم يشر له صراحة ، لكن مفهوم كلامه يفصح عنه .

وآخر دعوانا أن الحمد لله .

%%%

فهرس المراجع

بغية الوعاة ، السيوطي ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ١٩٦٥ م

الجواهر المضيئة في طبقات الحنفية ، لابن أبي الوفاء القرشي ، تحقيق : د . عبدالفتاح الحلو ، الرياض ، ١٩٨٥ م.

شذرات الذهب ، لابن العماد ، القاهرة ، ١٣٥٠ هـ .

الفوائد البهية في تراجم الحنفية ، محمد عبدالحي اللكنوي ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٣٢٤ هـ

المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني ، د . أحمد جمال العمري ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٤١٠ هـ .

مفتاح العلوم ، لأبي يعقوب السكاكي ، تحقيق : نعيم زرزور ، دار الكتب الوطنية ، بيروت ، ١٤٠٣ هـ .

معجم الأدباء ، ياقوت الحموي ، تحقيق : د . إحسان عباس ، دار الغرب ، بيروت ، ١٩٩٣م.

فهرس الموضوعات

المقدمة ٢

الحديث عن السكاكي وكتابه ٤

الشاهد القرآني عند السكاكي ٨

الخاتمة ١٦

فهرس المراجع ١٨

فهرس الموضوعات ١٩